إني والجن والإنس في نبأ عظيم

قال رب العزة سبحانه في الحديث القدسي:

(إِنِّي وَالجِنّ والإنس فِي نَبَأ عَظِيمٍ: أَخْلُقُ وَيُعْبَدُ غَيْرِي، وَأَرْزُقُ وَيُشْكَرُ سِوَايَ)[1]

العبودية للَّه عزٌّ وشرف، يأخذ بها العبد خير سيده، وكلمة العبودية مكروهة عند النفس؛ لأنها تعني الذل والهوان، كما نرى في عبودية البشر للبشر، وهو أن السيد يأخذ خير عبده، ولكن في عبوديتنا للَّه العبد يأخذ خير سيده.

ولذلك، فالصفة التي تميّز بها رسول اللَّه ﷺ فاستحق أن يُسْرى به، وأن يُعْرَجَ به إلى السماء أنه عبدٌ للَّه أخلص في العبودية، فنال مقام القرب من اللَّه.. قال تبارك وتعالى:

﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾.. [الإسراء: ١٧].

فهو في عبوديته للَّه، كان في أعلى درجات الإنعام من اللَّه سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ في المعجزة الكبرى التي لم تحدث لبشر قبله ﷺ، سواء كان رسولاً أو غيرَ رسول، ولن تحدث لبشر بعده.

فالعبودية عطاء علوي من اللَّه، فكان سيدنا محمد ﷺ عندما تناهَى في العبودية للَّه نال تناهِي الخير، فقد أخلص ﷺ العبودية للَّه، فأخذ من فيوضات الحق بما يناسب عبوديته.

والحق سبحانه يوضح لكل عبد: نَمْ ملء جَفْنيك، فأنا لا تأخذني سِنَة[2]

---

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال (١٦/ ٤٣٦٧٤)، وعزاه للحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والبيهقي في شعب الإيمان. ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٤/ ٤٠٥٢).

(٢) السنة: نعاس من غير نوم. والسنة: نعاس يبدأ في الرأس. [لسان العرب ـ مادة وسن]. يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. يقول ابن كثير =

ولا نوم، وأنا قيوم[1]، وإن احتجتَ مني إلى شيء ما فادْعُني، وسأمدُّ لك يد العون بما يناسبك.. فهل في هذه العبودية للَّه شيء غير العزة؟

فأنت كلما ذللتَ للحق سبحانه يُعزك، فعبوديتك للَّه تعطي خيرَ اللَّه لك، والشاعر يقول:

حَسْبُ نَفْسِي عِزّاً بِأَنِّي عَبْدٌ ... يَحْتَفِي بِي بِلَا مَوَاعِيدَ رَبُّ
هُوَ فِي قُدْسِهِ الأَعَزُّ وَلَكِنْ ... أَنَا أَلْقَى مَتَى وَأَيْنَ أُحِبُّ

فأنت أيها العبد المؤمن تَلْقى اللَّه متى أردتَ، وإذا أسلمتَ زمامك للإيمان، فالزمام في يديك. يكفي أنْ تنوي الصلاة وتقول: اللَّه أكبر فتكون في حضرته سبحانه، سواء كنتَ في البيت، أو في الشارع، أو في أي مكان، وفي هذا منتهى العزة لك.

فما بالك لو حاولتَ لقاء عظيم من عظماء الدنيا؟ وكم أنت مُلاقٍ من المشقة والعَنَت؟ وكم دونه من الحُجَّاب والحراس؟ ثم بعد ذلك ليس لك أنْ تختار، لا الزمان ولا المكان، ولا الموضوع ولا غيره.

أما عبوديتك للَّه فيكفيك عزاً وكرامةً أنك إذا أردتَ مقابلة سيدك فالأمر في يدك، فما عليك إلا أنْ تتوضأ وتنوي المقابلة قائلاً: اللَّه أكبر. فتكون في معية اللَّه عز وجل في لقاء، تحدد أنت مكانه وموعده ومُدَّته، وتختار أنت موضوع المقابلة، وتظل في حضرة ربك إلى أن تُنْهِي المقابلة متى أردتَ.

فالعزة في العبودية للَّه، والعزة في السجود له تعالى، فعبوديتك للَّه تعصمك من العبودية لغيره، وسجودك له تعالى يعصمك من السجود لغيره، ألا ترى قول الشاعر:

وَالسُّجُودُ الَّذِي تَجْتَوِيهِ ... مِنْ أُلُوفِ السُّجُودِ فِيهِ نَجَاةٌ

= في تفسيره (١/ ٣٠٨): «أي: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية».

(١) قال الزجاج: القيوم والقيّام في صفة اللَّه تعالى وأسمائه الحسنى القائم بتدبير أمر خلقه في إنشائهم ورزقهم وعلمه بأمكنتهم. وقال قتادة: القيوم القائم على خلقه بآجالهم وأعمالهم وعلمه بأرزاقهم. [لسان العرب ـ مادة: قوم].

إذن: فكَبِّر اللَّه تكبيراً وعظِّمه والتجىء إليه، فمن التجأ إلى اللَّه تعالى كان في معيته وأفاض عليه الحقُّ من صفاته وعَصَمه من كيد الآخرين وقَهْرهم.

فعبودية رسول اللَّه ﷺ لربه كانت حيثية الرفعة في الإسراء والمعراج، فالعبودية رفعته إلى حضرته تعالى؛ لأنه كان عبداً بحق، وهذا يعني إنزال الكتاب عليه، فكان عبداً بحق قبل أنْ يُسْرَى به، وحمل منهج اللَّه أولاً، فالتفت لربه لفتة أراد أنْ يلفت بها سواه، فأخلص هو أولاً في العبودية للَّه سبحانه وتعالى، فكان عبداً بحق فاستحق شرف الاتصاف بأنه ﷺ عبد للَّه تَحمَّل ما تحمل، فكان من جزائه أنْ يرتفع إلى مقام الحضرة، فعُرج به[1].

وهناك أعطاه اللَّه الصلاة لينزل بها إلى الخَلْق ليرفع بها صوته إلى المقام الذي سعى إليه بالمعراج. إذن: فالنبي تناول ليناول، وتناول لأنه أخلص العبودية فصعد إلى حضرة ربه، وأخذ فريضة الصلاة وبلَّغها لقومه وكأنه يقول لهم: مَنْ أراد أنْ يلتقي باللَّه، فليدخل في الصلاة. فالعبودية للَّه سيادة والعبودية للبشر ذِلَّة ومهانة.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

فالمسيح عليه السلام لا يجد غَضَاضة في أن يكون عبداً للَّه، ولا يستكبر على ذلك بل هو يَشْرُف به، والملائكة المقربون أيضاً يَشْرُفون بهذا الأمر.

والملائكة المقربون هم الذين لا يعلمون شيئاً عن هذا العالم، وليس لهم عمل إلا التسبيح للَّه؛ لأنهم عرفوا العبودية للَّه، وهي عبودية ليستْ لمن يستذل، لكنها لمن يُعزّ، وليست عبودية للذي يأخذ، ولكنها للذي يعطي.

والذي يستنكف من هذا لا يعرف قيمة العبودية للَّه؛ لذلك لا يستنكف

---

(١) عرج في الدرجة والسلم يعرج عروجاً، أي: ارتقى، وعرج الشيء: ارتفع وعلا وصعد. والمعارج: المصاعد. وقيل: معارج الملائكة، وهي مصاعدها التي تصعد فيها وتعرج فيها. [اللسان ـ مادة: عرج].

المسيح أنْ يكون عبداً للَّه، ولا الملائكة المقرّبون. أما عن عيسى عليه السلام، فقال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١١٦].

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة: ١١٧].

فقد عرض عيسى عليه السلام من خلال قوله لربه تعالى المنهج الذي جاء به على الناس جميعاً وبلَّغه تمام البلاغ، فقد أبلغ أنه عبد للَّه وأنه رسوله، فعيسى عليه السلام مُنزّه عن أنْ يشرك باللَّه أو يشرك نفسه في الألوهية والمسيح نفسه كان دائماً مع اللَّه خاشعاً عابداً، بل إن أول كلمة نطق بها المسيح عيسى ابن مريم وهو في المهد، أنه عبد للَّه، فقال:

﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٣٠].

فاستهلاله كلامه بعبوديته للَّه دليل على أنه قد يقال فيه: إنه ليس عبداً، وأنه إله أو شريك للَّه، فأول كلمة نطق بها أنه عبد للَّه؛ ولذلك تجد أن أهل الكتاب يقولون عنه إنه تكلم في المهد، فإذا سألتهم: ماذا قال حين تكلم؟ تجدهم يسكتون ولا ينطقون بما قاله أبداً؛ لأن كلامه ينفي معتقدهم.

إن صبياً يتكلم في المهد هو معجزة بكل المقاييس، فكيف تخلو كتبهم من قول عيسى في المهد (إني عبد اللَّه)، وكان لا بُدَّ أن تكون الكلمة مدروسة بعناية، وألا تُنسى، وحَفِظ جنود اللَّه سبحانه وتعالى الكلمة التي تؤكد بشرية عيسى عليه السلام.

وعندما نقول هذا الكلام، فليس الهدف منه تصحيح عقائد أحد، ولكننا فقط نريد أن يتضح منطق الإيمان في عقول المسلمين، أما أبناء الديانات الأخرى فهم أحرار فيما يعتقدون، والمهم بالنسبة لنا أن يكون ديننا وقرآننا متضحاً أمام أعيننا، ولا يجرؤ أحد أن يميل به.

والحق سبحانه يفتتح سورة هود، فيقول تعالى:

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢].

إذن: فقد أُحكِمَتْ آيات الكتاب، وفُصِّلت لغاية هي: ألا نعبد إلا اللَّه.

والعبادة هي طاعة العابد للمعبود فيما أمر وفيما نهى، وهكذا نجد أن العبادة تقتضي وجودَ معبود، له أمر وله نَهْي، والمعبود الذي لا أمرَ له ولا نهي لا يستحق العبادة، فهل مَنْ عبد الصنم تلقَّى منه أمراً أو نهياً؟ وهل مَنْ عبد الشمس تلقى منها أمراً أو نهياً؟

إذن: فكلمة العبادة لكل ما هو غير اللَّه هي عبادة باطلة؛ لأن مثل تلك المعبودات لا أمرَ لها ولا نَهْي، وفوق ذلك لا جزاءَ عندها على العمل الموافق لها، أو المخالف لها.

والعبادة بدون منهج «افعل» و «لا تفعل» لا وجودَ لها، وعبادة لا جزاء عليها ليستْ عبادة، وما دامت العبادة هي طاعة الأمر وطاعة النهي، فهي إذن تشمل كل ما ورد فيه أمر، وكل ما ورد فيه نهي، وإن نظرتَ إلى الأوامر والنواهي لوجدتها تستوعب كل أقضية الحياة: من قمة الشهادة بأن لا إله إلا اللَّه، إلى إماطة الأذى عن الطريق (١).

وكلُّ حركة تتطلبها الحياة لإبقاء الصالح على صلاحه، أو زيادة الصالح ليكون أصلح، فهي عبادة، فأنت إذا نظرتَ إلى العبادة تجد أنها تتطلب كل حركة في الحياة، فلا تَقُلْ: «سأنقطع للعبادة» بمعنى أن تقصر حياتك على الصلاة فقط؛ لأن كل حركة تصلح في الحياة هي عبادة.

إنْ أردتَ ألَّا تعمل في الحياة فلا تنتفع بحركة عامل في الحياة، وإذا لم تنتفع بحركة أيِّ عامل في الحياة فلن تقدر أنْ تصلي ولن تكون لك قوة لتصلي

---

(١) عن أبي هريرة (قال: قال رسول اللَّه): «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون ـ شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا اللَّه، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان». أخرجه مسلم في صحيحه (٣٥) كتاب الإيمان، وكذا أخرجه البخاري في صحيحه (٩) دون: أفضلها، وأدناها. وإماطة الأذى عن الطريق: تنحيته وإبعاده عن طريق الناس حتى لا يؤذيهم، والأذى قد يكون أحجاراً، أو أي شيء قد يؤذي الناس ويعوق سيرهم في الطريق.

إذن: فالعبادة هي كل حركة تتطلبها الحياة في ضوء «افعل» و «لا تفعل»، فالعبادة معناها التزام بأمر فيُفعل، ويُنهى عن أمر فلا يُفعل؛ لذلك إذا جاء مَنْ يدَّعي الألوهية، وليس معه منهج نقول له: كيف نعبدك؟ وما المنهج الذي جئْتَ به؟ وبماذا تأمرنا؟ وعن أيّ شيء تنهانا؟

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

فالرب هو المتولّي الإيجاد والتربية، ومن الواجب والمعقول أن نسمع كلامه؛ لأنه هو الربُّ والخالق، وهو الذي يرزق؛ بدليل أننا حين نسأل أهل الكفر في غفلة شهواتهم: مَنْ خلق السماوات والأرض؟ تنطق فطرتهم فيقولون: اللَّه الذي خلق السماوات والأرض.

وهذا أمر قد سجله الحق سبحانه في قرآنه، فقال:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

هذه المسألة حين يديرها الكافر في عقله لا يجد أحداً ادعى أو يستطيع أنْ يدَّعي أنه خلق السماوات والأرض فلا يكون جوابهم إلا أن الخالق هو اللَّه لماذا؟

لأن الإنسان في تكوينه قد يدَّعي أشياء ليستْ له، ولكنه لا ينفي أمراً هو صاحبه، فمخترع أيَّ شيء أو صانعه، لا يمكن أن ينكر أنه صنع أو اخترع، بل يحب أنْ تعرف الدنيا كلها أنه اخترع أو صنع، ولهذا فأنت لا تجد شيئاً يُنتفع به في الكون ـ مهما كان تافهاً ـ إلا وعرفنا تاريخه، ومن أين جاء، ومَن الذي اخترعه، أو اكتشفه، أو صنعه.

ومثال هذا ما درسناه في المدارس عن الذي اكتشف الكهرباء، والذي صنع المصباح الكهربائي، ومَن الذي طوّره، وكذلك اختراع الطائرة، ومعروف لنا كيف نشأتْ فكرة الطيران بعباس بن فرناس [١]، الذي حاول الطيران بذاته بواسطة أجنحة كبيرة، وهكذا كانت البداية.

---

(١) عباس بن فرناس أبو القاسم مخترع أندلسي، من أهل قرطبة، كان في عصر الخليفة عبد =

إذن: فكلُّ شيء نافع للإنسان في هذا الكون معروف للناس مَن الذي اكتشفه، أو صنعه، أو اخترعه، فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للصناعات البشرية المحدودة، فما بالك بالنسبة للكون؟

حين نسأل: مَنِ الذي أوجد الشمس؟ أَلَا يستحق خالقها أنْ نعرف مَنْ هو خصوصاً ونحن نعرف مَنِ الذي اخترع مصباح الكهرباء وأوجده في حياتنا؟

وإذا كنا نملأ الدنيا بالحديث عن مخترع مصباح الكهرباء الذي ينير حجرة محدودة لوقت، وقامت مصانع كبيرة لتنتج هذا الاختراع، أفلا يستحق الأمر أنْ نعرف مَن الذي أوجد الشمس التي تنير نصف الكرة الأرضية في نفس اللحظة؟

هذه الشمس التي تشرق منذ ملايين السنين ولم تنطفئ مرة واحدة، ولا احتاجت قطعة غيار طوال هذا العمر الطويل، لا بد أن يكون لها صانع تتناسب قوته وقدرته مع ذلك الإعجاز الذي نراه: سواء في الضوء، أو في خصائص هذا الضوء، أو في دِقَّة الصنع، فهي لا تتأخر ثانية ولا تتقدم ثانية عن الظهور، ولا بُدَّ أنْ صانعها له قوة تتناسب مع عظمة هذا الخَلْق.

فإذا جاء الرسول وأبلغنا أن اللَّه هو الذي خلق الشمس، فإما أنْ يكون صادقاً فنُسلِّم جميعاً بأن اللَّه هو الخالق والمُوجِد، وإما أنه غير صادق، فنقول: لماذا لم يخرج إذن أحدٌ يدَّعي أنه هو الذي خلقها.

فقضية الخَلْق محسومة للَّه سبحانه ولا يوجد هناك منازع، فعندما يأتي رسول اللَّه ليقول: إن خالق الأرض والشمس والسماوات والكون هو الحق سبحانه وتعالى، ولم يَأْت أحد ويدّعي أنه قد خلق شيئاً من هذا.

وهذا يؤكد صحة دعوى الرسول، مما يؤكد أن مَنْ أوجد هذا الكون هو

= الرحمن الثاني بن الحكم (في القرن التاسع الميلادي) وكان فيلسوفاً شاعراً له علم بالفلك، واتّهِم في عقيدته، وهو أول من استنبط في الأندلس صناعة الزجاج من الحجارة وصنع «الميقاتة» لمعرفة الأوقات، ومثَّل في بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها وأراد تطيير جسمه فكسا نفسه بالريش ومدَّ له جناحين طار بهما في الجو مسافة بعيدة، ثم سقط فتأذى في ظهره لأنه لم يعمل له ذَنَباً «ذيلا». [توفي عام ٢٧٤ هـ]. (الأعلام ٣/ ٢٦٤).

قوة بلا حدود وقدرة بلا قيود، وهو الأحقُّ بالعبادة من هذه الأصنام والآلهة.

ويبرز لنا الحق سبحانه أحقيته تعالى للعبادة وحده دون شريك في تعديده نِعَمَه على عباده، وذلك في سورة النمل، فيقول سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

فهذا الكون قد أُعِدَّ لك أيها الإنسان، أَمَا كان يصح أنْ تفكر فيمن أعدَّ لك هذا الكون، وخلق لك كل ما ليس في متناول قدرتك، وسخر كلَّ ذلك لك؟

وقد أبلغك الحق: أنا خلقتُ السماء، وخلقتُ الأرض والشمس والنجوم، وحين وصلك هذا البلاغ، فإما أنْ يكون صِدْقاً فلتنفذ ما أمر به الخالق، وإن لم يكُنْ هذا الكلام صِدْقاً، فَمنِ الذي خلق إذن؟

إنْ كان هناك إله غيره سبحانه قد خلق الكون وسمع مثل هذا البلاغ، ولم يهتم لبيان صِدْق المسألة، لَمَا كان هذا الآخر يستحق أنْ يكون إلهاً، وما دام لم يظهر مُعارِض له سبحانه فهو الخالق، لأن الدعوى إذا ما صدرتْ من واحد ولم يظهر لها مُعارض فصاحبها هو مَنْ أصدرها إلى أنْ يُوجَد له معارض.

فإذا كان اللَّه هو الذي خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماء، فيه حياتكم، فأنبتَ به الحدائق والزروع والثمار، فهل هو المستحق للعبادة، أم ما تشركون به من أصنام وأوثان ومخلوقات؟

ويقول الحق: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[1] [النمل: ٦٢].

---

(١) أي: أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل وقوماً بعد قوم، ولو شاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد لكانت تضيق عنهم الأرض وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم ويتضرر بعضهم ببعض ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ثم يُكثّرهم غاية الكثرة ويذرأهم في الأرض ويجعلهم قروناً بعد قرون وأمماً بعد أمم حتى ينقضي الأجل.

فالواجب على الإنسان أنه ساعة ما تمسُّه الضراء أنْ يتجه إلى خالقه، ولقد جعل اللَّه الضراء وسيلةَ تنبيه يتذكَّر بها الإنسان أن له رباً، وفي هذه اللحظة يجيب الحقُّ الإنسانَ المضطرَّ، ويُغيثه.

وإذا صنع اللَّه مع المضطرِّ هذا، فقد يثُوب إلى رُشْده، ويقول: إن الإله الذي لم أَجِدْ لي مَفْزعاً إلا هو، لا يصحّ أنْ أنساه، والمضطر هو الذي استنفد الأسباب المخلوقة للَّه، وما دام استنفد الأسباب ولم تنفع، فعليه أنْ يذهب لمسبِّب الأسباب. والإنسان لا يغشُّ نفسه، فلا يذهب لصنم، أو لأيِّ أحد إلا اللَّه؛ لأنه يعلم أنه وحده القادر على مساعدته وإنقاذه.

ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦].

والعقل يستنكر أنْ نعبد أحداً غير اللَّه، فغيره لا يملك أنْ يصنع الضرَّ للخصوم، ولا النفعَ لنفسه، أو لأشياعه وأنصاره، بدليل أن الأعداء فعلوا ما فعلوا بعيسى عليه السلام، وما مَلَك عيسى عليه السلام أو الحواريون أنْ يضرُّوهم، ولا استطاعوا أنْ يفعلوا شيئاً ينفعون به أنفسهم.

يقول رب العزة سبحانه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

ويقول سبحانه: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

والكفار لا ينكرون أن اللَّه خلقهم، وخلق السماوات والأرض، وخلق كل شيء، فعند قضية الخلق لا يستطيع أحد أنْ يتكلم، فلا يستطيع أحد أنْ يدَّعي أنه خلق نفسه، أو خلق شيئاً في الكون، أو أن أحداً غير اللَّه هو الذي خلق، فاللَّه تعالى بدأ الخَلْق، أي: خلقنا من عدم، وما دام خلقنا من عدم، وكتب علينا أنْ نموت، فقد أخبرنا بالغيب أنه سيبعثنا مرة أخرى.

الكفار كذَّبوا هذه القضية، قضية البعث بعد الموت، وما دام الحق

سبحانه قادراً أنْ يخلق من عدم، والكل يشهد بذلك، فالذي خلق من لا شيء وعنده أنقاض أو بقايا شيء، فإرجاع هذا الشيء أَهْون من خَلْقه من العدم.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الروم: ٢٧].

وعملية (أهون) هذه لا تناسب مقام الألوهية؛ لأن الأمور عند اللَّه ليس فيها أهون وأصعب، ولكن هذا تقريب للمعنى في عُرْف البشر، فهو سبحانه خلقكم من لا شيء، وأصبحتم بشراً، وصار لكم مخلفات موجودة في الكون.

فحين يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى من هذه البقايا أسهل من أن يخلقكم من عدم، كما حدث في النشأة الأولى، وهذا بِعُرْفكم أنتم، فإذا كان اللَّه لم يُعْجزه أنْ يخلقكم من عدم، فحين يعيدكم من مواد موجودة، هل يصعب عليه ذلك؟

وبعد كل نعمة أنعمها اللَّه يكون استفهامه: (ءإله مع اللَّه) (ءإله مع اللَّه)؛ وحين يكرر الحق هذا الاستفهام، فمعناه أنك لن تستطيع أنْ تجيب بأنَّ هناك إلهاً مع اللَّه فهذه القضية محسومة، وهي القضية العقدية الأولى.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

فهو إله واحد، نصدر جميعاً عن أمره؛ لأن الأمر الهام في هذه الحياة أن تتضافر حركة الأحياء وتتساند، لا أنْ تتعاند، ولا يرتقي بنيان ما إذا كنتَ أنت تبني يوماً ليأتي غيرك، فيهدم ما بنيتَ.

لذلك قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

فالإله واحد؛ لأنه إنْ كان هناك آلهة متعددة كما يقولون، فيكون هناك مثلاً إله للشمس، وإله للسماء، وإله للأرض، وإله للماء، وإله للهواء، حينئذ يكون كل إله من هذه الآلهة عاجزاً عن أنْ يدير ويقوم على أمر آخر غير ما هو إله وقائم عليه، ولَنَشأ بينهم خلاف وشقاق.

يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فإله الشمس قد يفصلها عن الكون، وإله الماء قد يمنعه عن بقية الكائنات فمن مصلحة الإنسان أن يكون عبداً لإله واحد، حتى لا يكون ذليلاً وخاضعاً وعبداً لإله الشمس، أو لإله الهواء، أو لإله الماء.

فربنا يريد أنْ يُريحنا من الوهم والاضطراب والتردد، إنه إله واحد، وعندما يحكم اللَّه حكماً فلا أحدَ يناقضه، وسبحانه يهدينا بما يُشرِّعه لنا، وما دام الحق سبحانه هو الذي يملك السماوات والأرض، ولم يدّع أحد من خَلْقه أنه يملكها، وفي السماوات والأرض وما بينهما حياتنا ومُقوِّمات وجودنا، فهو سبحانه أَوْلَى وأحقّ أنْ يُعبد.

فادعاء الإنسان شريكاً مع اللَّه هو ظُلْم لنفسه، فأنت حين تعتقد أن للَّه شركاء، فتعبد وتطيع معه غيره تكون قد أتعبتَ نفسك تعب الأغبياء، واقرأ قول الحق سبحانه: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ﴾ [الزمر: ٢٩].

فهذا عبد مملوك لجماعة، والجماعة مختلفة ومتشاكسة، وهو لا يعرف كيف يُوفِّق بين أوامر كل منهم التي تتضارب، فإن أَرْضَى هذا أغضب ذاك.

إذن: فهو عبد مُبدَّد الطاقة، مُوزَّع الجهد، مُقسَّم الالتفاتات. أما العبد المملوك لواحد، فلا يتلقَّى أمراً إلا من سيد واحد، ونَهْياً من السيد نفسه.

ولذلك قال يوسف عليه السلام لصاحبي السجن: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩].

فلو كان تفرُّق هذه الآلهة تفرُّقَ ذوات لكانوا بلا كمال يستحقون من أجله العبادة، ولو كان تفرُّقهم تفرُّقَ تكرار لما كان لهذا التكرار لزوم، ولو كان تفرُّقهم تفرُّقَ اختصاصات، فهذا يعني أن لكل منهم نقاطَ قوة ونقاطَ ضعف، وتفرُّقهم هذا دليل نقص؛ ولذلك رحمنا الحق سبحانه ـ نحن المؤمنين به ـ بأن أمرنا أن نعبد إلهاً واحداً.

إن الإيمان بإله واحد يجعلك غيرَ خاضع إلا لوجهة واحدة، ولا أوامرَ من جهة أخرى أبداً، إذن: فقد أرحْتَ نفسك.

* إياك نعبد:

وقد جعل الحق سبحانه هذه القضية برُمّتها في آية نُردِّدها في كل ركعة من ركعات صلاتنا، فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ١].

فالحق سبحانه حين قال: ﴿إِيَّاكَ﴾ قصر العبادة على ذاته الكريمة؛ لأنه لو قال: نعبدك وحدك، فهي لا تؤدي المعنى نفسه؛ لأنك قد تقول: نعبدك وحدك ومعك كذا وكذا، ولكن إذا قلتَ: «إياك نعبد» وقدَّمْتَ إياك، تكون قد حسمْتَ الأمر بأن العبادة للَّه وحده فلا يجوز العطف عليها.

فالعبادة خضوع للَّه سبحانه بمنهج «افعل: و: لا تفعل»، لذلك جعل الصلاة أساس العبادة، والسجود هو منتهى الخضوع للَّه؛ لأنك تأتي بوجهك الذي هو أكرم شيء فيك، وتضعه على الأرض عند موضع القدم، فيكون هذا هو منتهى الخضوع للَّه، ويتم هذا أمام الناس جميعاً في الصلاة، لإعلان خضوعك للَّه أمام البشر جميعاً.

ويستوي في العبودية الغنيُّ والفقير، والكبير والصغير، حتى يطرد كلٌّ منا الكِبْر والاستعلاء من قلبه أمام الناس جميعاً، فيساوي الحقُّ ـ جلَّ جلاله ـ بين عباده في الخضوع له، وفي إعلان هذا الخضوع.

وهكذا، فإننا عندما نقول: «الحمد للَّه» فإننا نستحضر موجبات الحمد، وهي نِعَم اللَّه ظاهرةً وباطنةً. وحين نقول: «ربِّ العالمين» نستحضر نِعمَ الربوبية في خَلْقه وإخضاع كونه.

وحين نستحضر: «الرحمن الرحيم» فإننا نستحضر الرحمة والمغفرة، ومقابلة الإساءة بالإحسان، وفتح باب التوبة.

وحين نستحضر: «مالك يوم الدين» نستحضر يوم الحساب، وكيف أن اللَّه تبارك وتعالى سيجازينا على أعمالنا، فإذا استحضرنا هذا كله نقول: «إياك نعبد». أي: أننا نعبد اللَّه وحده. إذن: عرفنا المطلوب منا، وهو العبادة.

* الغاية من خلق الجن والإنس:

والحق سبحانه خلقنا في الحياة لنعبده مِصْداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فعلّة الخلق هي العبادة، ولقد تَمَّ الخَلْق لتتحقق العبادة وتصبح واقعاً، ولكن «العلة والمعلول» لا ينطبقان على أفعال اللَّه سبحانه وتعالى، نقول: ليس هناك عِلَّة تعود على اللَّه ـ عز وجل ـ بالفائدة؛ لأن اللَّه تبارك وتعالى غنيٌّ عن العالمين.

ولكن العِلَّة تعود على الخَلْق بالفائدة، فاللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ خلقنا لنعبده، ولكن علة الخلق ليس لأن هذه العبادة ستزيد شيئاً في مُلْكه، وإنما عبادتنا تعود علينا نحن بالخير في الدنيا والآخرة.

ولكن، هل العبادة هي الجلوس في المساجد والتسبيح، أم أنها منهج يشمل الحياة كلها، في بيتك، وفي عملك، وفي السعي في الأرض؟ ولو أراد اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ من عباده الصلاة والتسبيح فقط لَمَا خلقهم مختارين، بل خلقهم مقهورين لعبادته، ككُلِّ ما خلق عدا الإنس والجن.

* عباد أم عبيد؟

واللَّه تبارك وتعالى له صفة القهر، من هنا فإنه سبحانه يستطيع أنْ يجعل مَنْ يشاء مقهوراً على عبادته، مصداقاً لقوله جل جلاله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

فلو أراد اللَّه أنْ يُخضِعنا لمنهجه قهراً لا يستطيع أحد أنْ يشذَّ عن طاعته، وقد أعطانا اللَّه الدليل على ذلك بأن في أجسادنا وفي أحداث الدنيا ما نحن مقهورون عليه، فالجسد مقهور للَّه في أشياء كثيرة. القلب ينبض ويتوقف بأمر اللَّه دون إرادة منا، والمعدة تهضم الطعام ونحن لا ندري عنها شيئاً، والدورة الدموية في أجسادنا لا إرادةَ لنا فيها.

أشياء كثيرة في الجسد البشري، كلها مقهورة للَّه سبحانه وتعالى، وليس لإرادتنا دَخْل في عملها، وما يقع عليّ في الحياة الدنيا من أحداث أنا مقهور فيه، لا أستطيع أنْ أمنع حدوثه، فلا أستطيع أنْ أمنع سيارة أنْ تصدمني، ولا

طائرة أن تحترق بي، ولا كل ما يقع عليّ من أقدار اللَّه في الدنيا.

إذن: فمنطقة الاختيار في حياتي مُحدّدة، لا أستطيع أنْ أتحكَّم في يوم مولدي، ولا فيمن هو أبي، ومَنْ هي أمي، ولا في شكلي، طويل أم قصير؟ جميل أم قبيح، أو غير ذلك.

إذن: فمنطقة الاختيار في الحياة هي المنهج أنْ أفعل، أو لا أفعل، اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ له من كل خَلْقه عبادة القهر، ولكنه يريد من الإنس والجن عبادة المحبوبية؛ ولذلك خلقنا، ولنا اختيار في أن نأتيه أو لا نأتيه، في أنْ نطيعه أو نعصيه، في أنْ نؤمن به أو لا نؤمن.

فإذا كنتَ تحب اللَّه فأنت تأتيه عن اختيار، تتنازل عما يُغضبه حباً فيه، وتفعل ما يطلبه حباً فيه، وليس قهراً، فإذا تخلّيتَ عن اختيارك إلى مراداة اللَّه في منهجه، تكون قد حققْتَ عبادة المحبوبية للَّه تبارك وتعالى، وتكون قد أصبحتَ من عباد اللَّه، وليس من عبيد اللَّه.

فكُلُّنا عبيد للَّه سبحانه، والعبيد متساوون فيما يُقهرون عليه، أما العباد فهم الذين يتنازلون عن منطقة الاختيار لمراد اللَّه في التكليف؛ ولذلك فإن الحقَّ جَلَّ جلاله يُفرّق في القرآن الكريم بين العباد والعبيد.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ويقول تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٦٥].

وهكذا نرى أن اللَّه سبحانه أعطى أوصاف المؤمنين وسمَّاهم عباداً، ولكن عندما يتحدَّث عن البشر جميعاً يقول: عبيد. مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[آل عمران: ١٨٢].

ولكن قد يقول قائل: إن اللَّه تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧].

الحديث هنا عن العاصين والضالين ولكن اللَّه سبحانه قال عنهم (عباد).

نقول: إن هذا في الآخرة، وفي الآخرة كلنا عباد لأننا مقهورون لطاعة اللَّه الواحد المعبود تبارك وتعالى؛ لأن الاختيار البشري ينتهي ساعة الاحتضار، ونصبح جميعاً عباداً للَّه مقهورين على طاعته، لا اختيار لنا في شيء.

* عباد الرحمن.. والشيطان:

إن الشيطان لا يدخل مع اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ في معركة، وإنما يدخل مع خَلْق اللَّه الذين ينسُون اللَّه ويبتعدون عنه، يقول تبارك و تعالى عن إبليس أنه قال:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

أي: أنه أقسم بجلال اللَّه وعِزّته، ومعنى عِزّة اللَّه أنه غنيٌّ عن خَلْقه جميعاً، لا يحتاج لأحد منهم، فهو اللَّه ـ بجلال وجمال صفاته ـ قبل أن يوجد أحد من خَلْقه قد خلق هذا الكون وأوجده، ولم يستعِن بأحد، ولو آمن به الناس جميعاً ما زاد ذلك في مُلكه شيئاً، ولو كفر به الناس جميعاً ما نقص ذلك من مُلْكه شيئاً.

وقَسَم إبليس بِعِزّة اللَّه إقرار منه بها، وقد أقسم بعزة اللَّه أن يطلب الغواية للإنسان؛ لأن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ ما دام لا يزيد مُلْكه ولا ينقص بإيمان خَلْقه؛ لذلك أعطاهم حرية الاختيار.

ولو أراد اللَّهُ الناسَ مؤمنين ما استطاع إبليس أنْ يقتربَ من أحد منهم، ويحاول إبليس بحقده على الإنسان، وكُرْهه له أنْ يصرفه عن طريق الإيمان، ولكن هل يملك إبليس قوة إغواء على مؤمن؟

لا، ولذلك هناك استثناء: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٣].

أي: أن إبليس لا يستطيع أنْ يقترب من عبد مؤمن مخلص في إيمانه، فالشيطان نفسه يُقِرُّ أن مَنْ يستخلصه اللَّه لنفسه من العباد، إنما يعجز هو كشيطان

عن غوايته، ولا يجرؤ على الاقتراب منه.

فما عليك إلَّا أنْ تكون من هؤلاء، ما عليك إلا أنْ ترتمي في حضن ربك عز وجل وتعتصم به، فهو سبحانه القويُّ القادر على أنْ يدفع عنك ما لم تستطع أنت دَفْعه عن نفسك، فلا تقاومه بقوتك أنت، لأنه لا طاقةَ لك به ولا تدعْهُ ينفرد بك؛ لأنه إنِ انفرد بك وأبعدك عن اللَّه فسوف تكون له الغَلَبة.

ولذلك نقول دائماً: لا حَوْلَ ولا قوة إلا باللَّه. أي: لا حول [(١)]: لا تحوّل عن المعصية. ولا قوة. أي: على الطاعة إلا باللَّه.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٩].

والسلطان إما سلطان حجة تقنعك بالفعل، فتفعل وأنت راضٍ مقتنع به. وإما سلطان قَهْر وغلبة يُجبرك على الفعل، ويحملك عليه قهراً دون اقتناع.

إذن: تنفيذ المطلوب له قوتان: قوة الحجة التي تضيء لك وتوضّح أمامك معالم الحق، وقوة القهر التي تُجبرك على تنفيذ المطلوب عن غير اقتناع، وإنْ لم تَرَها.

والحقيقة أن الشيطان لا يملك أيًّا من هاتين القوتين، لا قوة الحجة والإقناع ولا قوة القهر. والحق سبحانه يوضح أن تسلّط الشيطان لا يقع على مَنْ آمن به رباً، ولجأ إليه واعتصم به، وما دُمْت آمنتَ باللَّه فأنت في معيته وحفظه ولا يستطيع الشيطان وهو مخلوق للَّه تعالى أنْ يتسلّط عليك أو يغلبك.

إذن: الحصن الذي يقينا كيد الشيطان هو الإيمان باللَّه والتوكل عليه سبحانه، فعلى مَنْ إذن يتسلط الشيطان؟

يوضح الحق تبارك وتعالى الجانب المقابل، فيقول: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ١٠٠].

---

(١) الحول: الحيلة والقوة أيضاً. قال ابن سيده هو: الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف. فكأن القائل إذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله كأنه يقول: لا حركة ولا استطاعة إلا بمشيئة اللَّه. [لسان العرب مادة: حول].

ومعنى يتولونه أي: يتخذونه ولياً يطيعون أمره، ويخضعون لوسوسته، ويتبعون خطواته، وهم بسببه أشركوا؛ لأنه أصبح له أوامر ونَواهٍ، وهم يطيعونه، وهذه هي العبادة بعينها، فكأنهم عبدوه من دون اللَّه بما قدّموه من طاعته في أمره ونَهْيه.

لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

والوليُّ للشيطان هو الذي يليه ويقرب منه، ومَنْ فعل ذلك فقد أورد نفسه موارد الهلاك، ويخسر الخسران الواضح والمحيط من كل جانب، فلا انفلاتَ من مثل هذا الخسران.

والخسران يأتي من أن الشيطان يُقَدّم الوعود الكاذبة لأوليائه، ويخبرهم بأشياء تسرُّهم؛ لذلك يقول تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فالشيطان يُوسْوِس في صدر صاحب المال قائلاً: إنك عندما تتصدق ببعض المال، فمالك ينقص، ووَيْل لمن يرضخ لوساوس الشيطان، لأنه يُورده موارد التهلكة، والشيطان يقدم أيضاً الأماني الكاذبة في الوساوس (ويُمنيهم).

ومثال ذلك ما جاء على لسان المتفاخر على أخيه بلون من الاستهزاء والعياذ باللَّه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

المتفاخر يقول: ما دام اللَّه قد أعطاني في الدنيا، وما دامتْ مهمة اللَّه هي العطاء الدائم فلا بُدَّ أنْ يعطيني ربي في الآخرة أضعافَ ما في الدنيا، ذلك أن سعيدَ الدنيا هو سعيدُ الآخرة، فماذا كان جزاؤه؟

لقد رأى انهيار زراعته، وعرف سوء مصير الغرور؛ لأنه استجاب لوعود

الشيطان، ووعود الشيطان ليستْ إلا غروراً: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

فما هو الغرور؟

هناك «غُرور» بضم الغين. و «غَرور» بفتح الغين. والغُرور ـ بضم الغين ـ هو الشيء يُصوَّر لك على أنه حقيقة، وهو في الواقع وَهْم. والغَرور ـ بفتح الغين ـ هو مَنْ يفعل هذه العملية؛ ولذلك فـ «الغَرور» هو الشيطان؛ لأنه يُزيِّن للإنسان الأمر الوهمي، ويُزيِّن للناس بعض الأمور، ويحثّ الخَلْق ليطمعوا في حدوثها، وعندما تحدث يجدون أنه لا صوابَ فيها فهي مما زيَّنه الشيطان.

لذلك سمَّى اللَّهُ الشيطانَ «الغَرور» لأنه يُطمِعنا نحن البشر بأشياء لا تصحّ ولا تحدث، ولهذا سوف يأتي الشيطان يوم القيامة ليتبرأ من الذين اتبعوه، ويتهمهم بالبلاهة:

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فالشيطان يعلن لأتباعه يوم القيامة: لم يكُنْ لي سلطان عليكم، لا حجة عندي لأقنعكم بعمل المعاصي، ولا عندي قوة تُرغمكم على الفعل، لكنكم أنتم كنتم على حرف إتيان المعاصي، ودعوتُكم فاستجبتم لي.

ويضيف الشيطان مخاطباً أتباعه: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

أي: أن الشيطان يؤكد أنه لن يفزع لأحد من الذين اتبعوه لينجده، إن كلمة «يصرخ» تعني أن هناك مَنْ يفزع لأحد تلبيةً لنداء أو استغاثة.

الشيطان إذن لن ينجد أحداً من عذاب اللَّه، ولن ينجد أحدٌ الشيطانَ من عذاب اللَّه، سيتبرأ كلٌّ منهم من الآخر، وهو بذلك يتملَّص من الذين اتبعوه.

وقد عرض لنا القرآن الكريم هذا الموقف في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ

﴿ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

فحظُّ الشيطان منك أنْ يُوقِعك في المعصية، ثم يتبرأ منك.

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1] [الأنفال: ٤٨].

فوسوسة الشيطان للكفار كانت في صورة تضخيم قوّتهم، وأن أحداً لن يغلبهم في قتالهم ببدر، وأنه ـ أي الشيطان ـ سيناصرهم في المعركة ويُجيرهم إن حدث لهم سوء، وقد أخذ الشيطان يُزيِّن لهم أعمالهم، ويَعِدهم كذباً بأنه سيجيرهم ويُؤازرهم، ويعمل على نصرهم، حتى اقترب المؤمنون والكفار من بعضهم البعض، وأصبحوا على مدى رؤية العين. ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]. أي: أنه بمجرد الترائي بين المؤمنين والكفار وقبل أن يلتحموا في المعركة ويبدأ القتال هرب الشيطان وتبرَّأ من الكفار، وجرى بعيداً.

إذن: فالشيطان لا قدرةَ له ولا قوةَ على فِعْل شيء، وكلّ ما يمكنه هو الخداع والتزيين والكذب، ولذلك أخذ يخدع الكفار ويكذب عليهم، وما أنْ صار المؤمنون والكفار على مدى رؤية العين بعضهم لبعض، هرب الشيطان وفزع ونكَص على عقبيه، وأعلن خوفه من اللّه؛ لأنه يعلم أن اللّه شديد العقاب. ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

لذلك سُمِّي الشيطان أيضاً «الوسواس الخناس»[2] في قوله تعالى: ﴿مِن

---

(١) النكوص: الإحجام عن الشيء. ونكص عن الأمر: أحجم. ونكص على عقبيه: رجع عما كان عليه من الخير، ولا يقال ذلك إلا في الرجوع عن الخير خاصة. والنكوص: الرجوع إلى وراء وهو القهقرى. [لسان العرب مادة: نكص].

(٢) الوسواس الخناس: المتحين للفرص، فساعةَ ضعف النفس ينقضُّ، وساعة عزيمة النفس =

﴿شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٤، ٥]، فالوسواس الخنَّاس هو الذي يُزيِّن لك أفعال الشرِّ في أذنك، وهو خنَّاسٌ لأنه يخنس ساعة يسمع قولك: «أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم».

لذلك يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أنْ يقول لعباده أن يقولوا التي هي أحسن، حتى لا يقعوا تحت طائلة الشيطان، يقول تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

لكن، لماذا نقول: التي هي أحسن؟

لأن الشيطان ينزغ بينكم ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٣]، والنزْغُ هو نَخْس الشيطان ووسوسته، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

فإنْ كنتَ منتبهاً له، عارفاً بحِيَله فذكرتَ اللَّه عند نَخْسه ونَزْغه انصرف عنك، وذهب إلى غيرك.

لذلك يقول تعالى عن الشيطان: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٤، ٥].

أي: الذي يخنس ويختفي إذا ذَكَرْتَ اللَّه، لكن إذا رأى منك ضعفاً وغفلة ومرّتْ عليك حِيَلُه، واستجبْتَ لوساوسه، فقد أصبحتَ فريسة سهلة بين أنيابه ومخالبه.

وعادةً تأتي خواطر الشيطان وكأنها مِجَسٌّ للمؤمن، واختبار لانتباهه، وحذره من هذا العدو، فينزغه الشيطان مرة بعد أخرى ليُجَرّبه ويختبره، فإذا كان النَّزْغُ هكذا، فأنت حين تجادل بالتي هي أحسن فإنك لا تعطي للشيطانِ فرصةً لأنْ يُؤجِّج العداوة الشخصية بينكما، فيُزيّن لك شَتْمه أو لَعْنه وهكذا يتحول الخلاف في المبدأ العام إلى عداوة ذاتية شخصية.

= ينفضّ، وهو الذي يوسوس في صدور الناس، فإذا ذكروا اللَّه خنس، يقول رسول اللَّه: «إن الشيطان واضع خِطْمَه (مقدم أنفه وفمه) على قلب ابن آدم، فإن ذكر اللَّه خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس»، أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ٢٦٨) من حديث أنس بن مالك.

ونلاحظ أنَّ نزْغَ الشيطان لا يقتصر على المتخاصمين والمتجادلين حول مبدأ ديني عقديٍّ، بل إنه ينزغ بين الإخوة والأهل والأحِبّة، ألم يَقُلْ يوسف عليه السلام:

﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

لقد دخل الشيطان بين أولاد النبوة، وزرع الخلاف حتى بين الأسباط وفيهم رائحة النبوة، ولذلك لم يتصاعد فيهم الشر، وهذا دليل على خَيْريتهم وأنت تستطيع أنْ تميز بين الخَيّر والشرير، ، فتجد الخَيّر يهدد بلسانه بأعنف الأشياء، ثم يتضاءل إلى أهون الأشياء، على عكس الشرير، فتراه يهدد بأهون الأشياء، ثم يتصاعد إلى أعنف ما يكون.

انظر إلى قول أحد إخوة يوسف: ﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا ﴾ [يوسف: ٩]، فقال الآخر، وكان أميل إلى الرفق به: ﴿ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ ﴾ [يوسف: ١٠]، فقد اقترح هذا الاقتراح وفي نيته النجاة لأخيه، بدليل قوله تعالى: ﴿ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ [يوسف: ١٠]، وهكذا تضاءل الشر في نفوسهم.

ثم يقول سبحانه و تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴾ [الإسراء: ٥٣].

أي: أن عداوة الشيطان لكم قديمة منذ أبيكم آدم ـ عليه السلام ـ فهي عداوة مُسْبقة، قال عنها الحق سبحانه وتعالى مخاطباً آدم عليه السلام: ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴾ [طه: ١١٧].

لذلك يجب على الأب كما يُعلِّم ابنه علوم الحياة ووسائلها أنْ يُعلِّمه قصة العداوة الأولى بين الشيطان وآدم عليه السلام ويُعلِّمه أن خواطر الخير من اللَّه، وخواطر الشر من الشيطان، فليكُنْ على حذر من خواطره ووساوسه.

وبذلك يُرَبِّي في ابنه مناعةً إيمانية، فيحذر كيد الشيطان ونَزْغه، ويعلم أن كل أمر يخالف أوامر الشرع فهو من الشيطان، وهذه التربية من الآباء تحتاج إلى إلحاح بها على الأبناء، حتى ترسخ في أذهانهم.

ويُحدِّثنا الحق سبحانه عن موقف المتقين ـ الذين هم «عباد الرحمن» ـ من وساوس الشيطان ونزغاته، فيقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فإذا ما تذكَّروا اللَّه، وما أعدَّه لأهل الإيمان، فهم يُبصرون الحقيقة الأولى التي ترتفع على كل شيء وهي الإيمان باللَّه، وهذا الإيمان إنما يتطلب تصفية القلوب من كل ما يُكدِّرها حتى تكون خالصة نقية.

اللَّه رحمن الدنيا والآخرة

عن رسول اللَّه أنه قال:

(إن اللَّه لما قضى الخَلْقَ كَتَبَ عِندَهُ فَوْقَ عَرْشِه: إن رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي)[1]

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣].

هاهم أُولاء عباد اللَّه، الذين يعرفون اللَّه، ويستحقون أنْ يُنسَبوا إليه، وأنْ يكونوا عباده، هاهم أولاء بصفاتهم المميزة ومُقوِّمات نفوسهم وسلوكهم وحياتهم.

هاهم أُولاء مُثُلاً حية واقعية والتي يريدها الإسلام، هؤلاء هم الذين يستحقون أنْ يَعْبأ بهم اللَّه في الأرض، ويُوجِّه إليهم عنايته، فالبشر كلهم أهْون على اللَّه من أنْ يَعْبأ بهم، لولا أن هؤلاء فيهم، ولولا أن هؤلاء يتوجهون إليه بالتضرع والدعاء.

فهؤلاء خُلَّص عباده المؤمنين، الذين استحقُّوا هذا الوصف بما لهم من فاضل الصفات وكامل الأخلاق، مما تَشْرئب إليها أعناق العاملين، وتتطلع إليها نفوس الصالحين الذين يبتغون المثوبة ونَيْل النعيم كِفَاء ما اتصفوا من كريم الخِلال، وأتَوْا به من جليل الأعمال.

وهو سبحانه اختار اسم «الرحمن» ولم يَقُلْ «عباد الجبار» أو «عباد القهَّار»؛ لأن الرحمة صفة التحنين للخَلْق، فالحق سبحانه يُظهر هذه الصفة لعباده، حتى في أسماء الجبار والقهار؛ لأنها من خَدَم الرحمة، ومن أسبابها لأن العبد إذا عرف للَّه صفة الجبروت وصفة القهر وصفة الانتقام انتهى عن

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٤)، وكذلك مسلم في صحيحه (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

أسباب الوقوع تحت طائلة هذه الصفات، فكأنه يرحم عباده، حتى بصفات القهر والانتقام.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنه إذا علم القاتل أنه سيُقتل انتهى عن القتل، فتشريع القصاص وإقامة الحدود والعقوبات لا لتعذيب الخلق، وإنما رحمة بهم حتى يقفوا بعيداً عن ارتكاب ما يُوجب القصاص أو الحد أو العقوبة، حتى الذي يقهره اللَّه مرحوم أيضاً؛ لأن اللَّه تعالى ما دام قال: أنا قهار فاحذرني، فهو بذلك يرحمه؛ لأنه يحذره من أسباب الوقوع فيما يستوجب غضبه وانتقامه.

وكذلك اختار اسم (الرحمن)؛ لأن مجال التكليف كله الرحمة، وما نزل المنهج من اللَّه إلا لينظم حياة الناس، ويحقق لهم السعادة في حركة الحياة، فيتكامل الخَلْق فيما بينهم، ويتعاونون ويتساندون لا يتعاندون، ويكونون جميعاً على قلب رجل واحد، هذه غاية المنهج الإلهي في دنيا الناس، أنْ يعيش المجتمع المسلم آمناً سالماً.

فرحمة اللَّه هي الغالبة في كل التشريع، وهي السمة العامة، ألَا ترى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢]، فالقرآن نفسه الذي نزل ليُنظم حياة الناس ويحكمها، ويُصلح حركة الحياة ويصنع سلاماً بينك وبين اللَّه، وبينك وبين نفسك، وبينك وبين الناس، هذا القرآن مظهر من مظاهر هذه الرحمة الإلهية.

بل إن رب العزة استخدم اسم «الرحمن» في مقام القهر والجبروت، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، فاختار سبحانه صفة الرحمة، ليوحي لنا أن استواءه سبحانه على العرش لا يعني القهر والجبروت، إنما استوى على عرشه رحمةً بكم؛ لينظم حياتكم ويرحم بعضكم ببعض، فتسعدوا بالحياة، فالاستواء هنا لا استواء قهر وغلبة بل في باطنه الرحمة كل الرحمة لمصلحة البشر.

فكل صفة من صفات جلاله سبحانه إنما هي مُحقِّقة لرحمانية اللَّه، لأنه يُخوِّف عباده بصفات الجلال حتى لا يقعوا في المخالفة، فيسعدوا في الدنيا والآخرة.

والرحمة والرحمن والرحيم، مشتق منها الرحم الذي هو مكان الجنين في بطن أمه، ذلك المكان الذي يأتيه فيه الرزق بلا حول ولا قوة، ويجد فيه كل ما يحتاج إلى نموه مُيسَّراً، رزقاً من اللَّه سبحانه بلا تعب ولا مقابل.

لذلك قال ربُّ العزة سبحانه في الحديث القدسي: «أنا الرحمن، خلقتُ الرحم؛ وشققْتُ لها اسماً من اسمي، فمَنْ وصلها وصلتُه، ومَنْ قطعها قطعتهُ»(١).

فاللَّه سبحانه يريد أنْ نتذكر دائماً أنه يحنو علينا ويرزقنا، ويفتح لنا أبواب التوبة، باباً بعد آخر، ونعصي فلا يأخذنا بذنوبنا، ولا يحرمنا من نِعَمِه، ولا يهلكنا بما فعلنا.

بل إن قارىء القرآن يبدأ تلاوته بـ «بسم اللَّه الرحمن الرحيم»، مما يجعله مُسْتحضراً دائماً أن أبواب الرحمة مفتوحة له، فرفع يديه إلى السماء: يارب رحمتك، تجاوزْ عني ذنوبي وسيئاتي.

وبذلك يظل قارىء القرآن متصلاً بأبواب رحمة اللَّه، كلما ابتعد عن المنهج أسرع ليعود إليه، فما دام اللَّه رحماناً رحيماً فلا تُغلق أبواب الرحمة.

فاللَّه رحمن الدنيا، رحيم الآخرة، فهو سبحانه رحمن في الدنيا لكثرة عدد الذين يشملهم اللَّه تعالى برحمته، فرحمة اللَّه في الدنيا تشمل المؤمن والعاصي والكافر، يعطيهم اللَّه مقومات حياتهم، ولا يؤاخذهم بذنوبهم، يرزق مَنْ آمن به، ومَنْ لم يؤمن به، ويعفو عن كثير.

فالذين تشملهم رحمة اللَّه في الدنيا هم كل خَلْقه، بصرف النظر عن إيمانهم أو عدم إيمانهم.

أما في الآخرة، فاللَّه رحيم بالمؤمنين فقط، فالكفار والمشركون مطرودون من رحمة اللَّه، فالذين تشملهم رحمة اللَّه في الآخرة أقلُّ عدداً من الذين تشملهم رحمة اللَّه في الدنيا.

وصفات اللَّه عز وجل لا تتأرجح بين القوة والضعف، فاللَّه راحم، وهو

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ١٩١ ـ ١٩٤) والترمذي في سننه (١٩٠٧) وقال: حديث صحيح. وكذا أبو داود في سننه (١٦٩٤) كلهم عن ابن عوف.

رحمن، وهو رحيم، وهو سبحانه لا يتغير، ولا تتغير صفاته، بل تضعف متعلقات الصفات أو تكثر، فهو رحمن لأنه يرحم المؤمن والكافر في الدنيا؛ لذلك فرحمته واسعة، وهو رحيم في الآخرة؛ لأنه يرحم المؤمنين في الآخرة.

فاللَّه لا يتغير من أجلنا، ولكن نحن الذين نتغير، ويجب أنْ نتغير من أجل اللَّه تعالى، فلو كان الحق سبحانه يتغير لخسف الأرض بالعبد الذي يعصيه، فهو ستَّار، يعصيه العاصي ويستره، وهو حليم لا يتغير.

ولا يصح أن تمنعك معصيتك للَّه، أن تستهلّ كل عمل تعمله باسمه سبحانه وتعالى، فقد جاء سبحانه بالحيثية لنا جميعاً، إنه رحمن ورحيم، ولولا رحمانيته ورحمته لما بقيتْ لنا الدنيا.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

فلولا رحمة اللَّه التي سبقت عدله ما بقي للناس نعمةٌ، وما عاش أحد على ظهر الأرض، فالإنسان وحده الذي يفسد في الأرض ويظلم، وينحرف عن اللَّه ويشرك، ويطغى بعضه على بعض، ويؤذي سواه من الخَلْق. واللَّه بعد هذا كله يحلم عليه، ويرأف به، ويمهله، وإن كان لا يهمله.

والحق سبحانه يُطَمئن خَلْقه قائلاً: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، فهو سبحانه كتبها على نفسه، وجعلها عهداً منه لعباده بمحض إرادته سبحانه ومطلق مشيئته.

وقد قال رسول اللَّه ﷺ في الحديث القدسي الذي نحن بصدده: «إن اللَّه لما خلق الخَلْق كتب كتاباً عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي»[(١)].

ورحمة اللَّه تفيض على عباده جميعاً، وتَسَعُهم جميعاً، وبها يقوم وجودهم وتقوم حياتهم، وهي تتجلى في كل لحظة من لحظات الوجود أو لحظات الحياة للكائنات.

---

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٤)، وكذلك مسلم في صحيحه (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

فهو سبحانه الرحيم الحليم ذو الفضل، وهو القائل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

ويعفو سبحانه عن الكثير، وباب رحمته وفضله مفتوح، ويُفسِح التوبة لكل عاصٍ، وهو سبحانه يهدي إلى التوبة ويعفو، وهو عظيم الرحمة بالعباد التوابين.

فعباده سيفرحون في الآخرة بفضل اللَّه ورحمته أكثر من فرحهم بعملهم الصالح، مصداقاً لحديث رسول اللَّه ﷺ: «سدِّدوا، وقاربوا، وأبشروا، فإنه لن يُدخِل الجنةَ أحداً عملُه. قالوا: ولا أنت يا رسول اللَّه؟ قال: ولا أنا إلا أنْ يتغمدني اللَّه برحمته»(١).

والفضل من اللَّه هو مَنَاط فرح المؤمن؛ لأنك مهما قمتَ بأداء ما عليك من تكليف فلن تؤديه كما يجب بالنسبة للَّه سبحانه؛ لذلك فلا يفرح أحد بما سيجمعه من حسنات، ولكن سيكون فرحه بما يعطيه ربُّه من فضله.

فالمسألة كلها بالفضل من اللَّه، وفَضْل اللَّه شرط تحقُّقه للعبد هو العمل الصالح، فالعبد من «عباد الرحمن» يعمل العمل الصالح، ويعطي اللَّهُ عليه من الثواب الأضعافَ المضاعفة، والعبد من «عباد الرحمن» يعلم أن عمله لن ينفع اللَّه في شيء، ولن يزيد في جلاله أو جماله أو كماله، أو يزيده صفة أو مُلْكاً، بل هو سبحانه يعطيهم ويزيدهم من فضله ورحمته.

ومن نِعَم اللَّه سبحانه على عباده أنه رحمن، وأنه رحيم، ولذلك نحمده على أنه الرحمن الرحيم، فكل النعم التي هي من عطاء الربوبية للَّه، هي في الدنيا لخلقه جميعاً، وهذه رحمة، فاللَّه ربُّ الجميع، مَنْ أطاعه، ومن عصاه، وهذه رحمة، واللَّه قابل للتوبة، وهذه رحمة، فهو سبحانه يمهل العاصي، ويفتح أبواب التوبة لكل مَنْ يلجأ إليه، وهذه رحمة.

وقد جعل اللَّه رحمته تسبق غضبه، وهذه رحمة تستوجب الشكر، ومن

---

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٣)، وكذا مسلم في صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة. وتغمده اللَّه برحمته: أدخله فيها وغمره بها. قال أبو عبيد: أي يُلبسني ويتغشَّاني ويسترني. [لسان العرب مادة: غمد].

رحمته سبحانه أنه جعل الشكر له في كلمتين اثنتين هما: الحمد للَّه.

والعجيب أنك حين تشكر بشراً على جميل فِعْله تظل ساعات وساعات تُعِدُّ كلمات الشكر والثناء، وتحذف وتضيف وتأخذ رأي الناس، حتى تصل إلى قصيدة أو خطاب مليء بالثناء والشكر، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى جلَّتْ قدرته وعظمته، نِعَمه لا تُعَدُّ ولا تُحصى، علَّمنا أنْ نشكره في كلمتين اثنتين هما: الحمد للَّه.

ومن موجبات الحمد أن اللَّه سبحانه وتعالى رحمن رحيم، يعطي نعمه في الدنيا لكل عباده عطاءَ ربوبية، وعطاء الربوبية للمؤمن والكافر، وعطاء الربوبية لا ينقطع إلا عندما يموت الإنسان، واللَّه لا يحجب نِعَمه عن عبيده في الدنيا، ونِعَم اللَّه لا تُعَدُّ ولا تُحصى.

واقرأ الحديث القدسي لتعرف شيئاً عن رحمة اللَّه تعالى بعباده، يقول رب العزة سبحانه: «ما من يوم تطلع شمسه إلا وتنادي السماء تقول: يا رب، ائذن لي أن أسقط كِسَفاً [(١)] على ابن آدم، فقد طَعِم خيرك ومنع شُكْرك. وتقول البحار: يا ربِّ، ائذن لي أنْ أُغرِق ابن آدم، فقد طَعِم خيرك ومنع شُكْرك. وتقول الجبال: يا ربِّ، ائذن لي أنْ أُطبِق على ابن آدم، فقد طَعِم خيرك ومنع شُكْرك». فيقول اللَّه تعالى: «دَعُوهم، لو خلقتموهم لرحمتموهم، إنهم عبادي، فإنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم» [(٢)].

تلك تجليات صفة الرحمن وصفة الرحيم، وكيف ضمنت لنا بقاء كل ما يخدمنا في هذا الكون مع معصية الإنسان، إنها كلها تخدمنا بعطاء الربوبية، وتبقى في خدمتنا بتسخير اللَّه لها؛ لأنه رحمن رحيم.

---

(١) الكِسْف: القطعة مما قطعتَ، وكِسَف السحاب: قِطَعُه. وكسفت الثوب: قطعته. [لسان العرب مادة: كسف].

(٢) أورده الغزالي في إحياء علوم الدين (٤ / ٥٢) من قول بعض السلف، ولفظه: «ما من عبد يعصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً، فيقول اللَّه تعالى للأرض والسماء: كُفَّا عن عبدي وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه، ولو خلقتماه لرحمتماه، ولعله يتوب إليَّ فأغفر له، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات».

فالحقُّ سبحانه يُطمئن خَلْقه قائلاً: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، وهو قوْل ليُطمئن به الحقّ عباده، حتى لا يظنَّ الناس أن اللَّه يعاقبهم دون حساب؛ لأنه الحليم ذو الفضل، ويعفو سبحانه عن الكثير، وباب رحمته وفضله مفتوح، ويفسح التوبة لكل عاصٍ.

من فضل اللَّه أنه جعل بعضاً من الكفار يقفون في بداية الإسلام ضد المسلمين ثم يكونون من بعد ذلك سُيوفاً للإسلام، وسبحانه الرحيم الذي يجمعنا للحساب يوم القيامة، الذي لا ريبَ فيه ولا شكَّ، ونسير جميعاً مدفوعين إلى ذلك اليوم، ويأتي الكافر على رغم أنفه، والمؤمن يتيقن رحمة اللَّه وفضله، ويفرح بلقاء ربه.

ولكن الحق سبحانه يُعلم هؤلاء الكافرين والمكذبين والعصاة أنه يحلم عليهم ويصبر عليهم، ولا يُعجِّل لهم العقوبة، رغم أنهم لنْ يُفلتوا منها إنْ هم أصرُّوا على كفرهم وعصيانهم، ولم يتوبوا.

يقول الحق سبحانه:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

وكان مقتضى أنهم يُكذِّبونك فيما أخبرتَ به عن اللَّه، أنْ يُعجِّل اللَّه لهم بالعذاب، لكن الحق لم يُعجِّل لهم بالعذاب؛ لأنه ذو رحمة واسعة.

﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ ...﴾ [الأنعام: ١٤٧].

ولكن إياكم أنْ تطمعوا في الرحمة الدائمة، إنها رحمة تأجيل فقط، ولن يفوتكم عذابه، وهنا يُحنِّنهم أيضاً، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ﴾.

وكأنه يقول لهم: راجعوا أنفسكم واسْتَحُوا من اللَّه، ولا يغرَّنكم أنّه ربٌّ خلق من عدم، وأمدَّ من عُدْم، وتولَّى التربية، لكنه لن يرد ويمنع بأسه وعذابه عن القوم المجرمين منكم.

لذلك يعظ الحق سبحانه وتعالى هؤلاء المفسدين المجرمين، فيقول:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ولكن، مَنِ الذي يُحدِّد قُرْب الرحمة منه؟ إنه الإنسان، فإذا أحسن قَرُبَتْ منه الرحمة، والزمام في يد الإنسان، لأن اللَّه لا يفتئت ولا يستبد بأحد، فإنْ كنتَ تريد أنْ تقرُبَ منك رحمةُ اللَّه فعليك بالإحسان.

لذلك يقول رب العزة ـ سبحانه وتعالى ـ في الحديث القدسي الذي ترويه عائشة رضي اللَّه عنها: «لا أَمَلّ حتى تملُّوا»(١).

وأنت تدخل بيوت اللَّه تصلي في أيِّ وقت، وتقف في أيِّ مكان لتؤدي الصلاة إذن: فاستحضارك أمام ربك في يدك أنت، وسبحانه حدَّد لك خمسة أوقات، أما بقية الأوقات فكلها في يدك، وتستطيع أنْ تقف بين يدي اللَّه سبحانه في أيِّ لحظة.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

«أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإنْ ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خير منه، وإن اقترب إليَّ شبراً تقرّبتُ إليه ذراعاً، وإن اقترب إليَّ ذراعاً اقتربتُ إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيتُه هَرْوَلة»(٢).

وهو جَلَّ وعَلا يوضح لك: استرح أنت، وسآتي لك أنا، لأن الجري قد يتعبك، لكني لا يعتريني تعب ولا عِيٌّ ولا عجز، وكأن الحق لا يطلب من العبد إلا أنْ يملك شعوراً بأنه يريد لقاء ربه. إذن: المسألة كلها في يدك، فرحمته سبحانه وقُرْبها منك في يدك أنت، وقد أعطاها لك، وعندما تُسلسلها تجدها تفضُّلاً من اللَّه، ولكن في يدك أنت.

ويعطينا الحق سبحانه في كتابه أمثلة على رحمة اللَّه، فيقول:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٧٠) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها أنها قالت: لم يكن النبي ﷺ يصوم شهراً أكثر من شعبان، وكان يصوم شعبان كله، وكان يقول: خذوا من العمل ما تطيقون، فإن اللَّه لا يمل حتى تملوا، وأحبُّ الصلاة إلى النبي ﷺ ما دُووِم عليه وإن قلَّتْ، وكان إذا صلى صلاة داوم عليها. وكذا مسلم في صحيحه (٧٨٢) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥)، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٥١)، والترمذي في سننه (٣٦٠٣) عن أبي هريرة. قال الترمذي: حسن صحيح.

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٥٠].

ويقول في قصة زكريا عليه السلام: ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[1] [مريم: ١ ـ ٦].

والرحمة هي تجلّيات الراحم على المرحوم بما يُديم له صلاحه لمهمته. إذن: فكل راحم ولو من البشر، وكل مرحوم ولو من البشر، ماذا يصنع؟ يعطي غيره شيئاً من النصائح تُعينه على أداء مهمته على أكمل وجه، فما بالك إنْ كانت الرحمة من الخالق الذي خَلَق الخَلْق؟ وما بالك إذا كانت رحمة اللَّه لخير خَلْقه محمد؟

إنها رحمة عامة ورحمة شاملة؛ لأنه (أشرف الأنبياء وأكرمهم وخاتمهم) فلا وَحْيَ ولا رسالةَ من بعده ولا إكمال.

إذن: فهو أشرف الرسل الذين هم أشرف الخَلْق، ورحمة اللَّه تأخذ حظها من الحق سبحانه بمقدار مهمته، ومهمة محمد أكرم المهمات.

لذلك قال تعالى: ﴿ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ [مريم: ٢]، لأنها أعلى أنواع الرحمة، وإنْ كان هنا يذكر رحمته تعالى بعبده زكريا، فقد خاطب محمداً ﷺ بقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فرحمة اللَّه تعالى بمحمد ليست رحمة خاصة به، بل هي رحمة عامة لجميع العالمين، وهذه منزلة كبيرة عالية.

فالمراد من ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ [مريم: ٢].

يعني: هذا الذي يُتلَى عليك الآن يا محمد هو ذِكْرُ وحديثُ وخبرُ رحمةِ

---

(١) الموالي: ورثة الرجل وبنو عمه. والمولى: العصبة. وهو على أوجه: ـ ابن العم والعم والأخ والابن والعصبات كلهم. ـ الناصر. ـ الولي الذي يلي عليك أمرك. ـ مولى الموالاة، وهو الذي يسلم على يدك ويواليك. ـ مولى النعمة، وهو المعتِق أنعم على عبده بعتقه. ـ المعتق لأنه ينزل منزلة ابن العم، يجب عليك أن تنصره وترثه إن مات ولا وارث له. [لسان العرب مادة: ولي].

ربك، التي هي أجلُّ الرحمات بعبده زكريا، فهي رحمة تتعلق بطلاقة القدرة في الكون، وطلاقة القدرة في أن اللَّه تبارك وتعالى خلق للمسبَّبات أسباباً، ثم قال للأسباب: أنت لستِ فاعلة بذاتك، ولكن بإرادتي وقدرتي، فإذا أردتُك ألَّا تفعلي أبطلتُ عملك، وإذا كنتِ لا تنهضين بالخير وحدك فأنا أجعلك تنهضين به.

فقصة رحمة اللَّه لعبده زكريا تعطينا دليلاً على طلاقة القدرة في مسألة الخَلْق، وهي تتجلى هنا في أن اللَّه تعالى استجاب لدعاء زكريا في أنْ يرزقه الولد، ولكن كيف يتحقق له هذا المطلب، وقد بلغ من الكِبَر عِتِياً وامرأته عاقر؟

فكأن الأسباب الموجودة جميعها مُعطَّلة عنده؛ لذلك توجَّه إلى اللَّه بالدعاء: يا ربِّ، لا ملجأ لي إلا أنت، فأنت وحدك القادر على خَرْق الناموس والقانون، وهذا مطلب من زكريا جاء في غير وقته.

وقد دعا زكريا ربه أي: أنه خاطب ربوبية ربِّه، ورحمانية ربه التي تشمل جميع الخلق، فكأن زكريا قال: يا رب، يا مَنْ تعطي مَنْ آمن بك، وتعطي مَنْ كفر، يا مَنْ تعطي مَنْ أطاع، وتعطي مَنْ عصى، حاشاك أنْ تمنعَ عطاءك عَمَّنْ أطاعك، ويدعو الناس إلى طاعتك.

ثم يقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

أي: لم أَكُنْ فيما مضى بسبب دعائي لك شقياً؛ لأنِّي مُسْتجاب الدعوة عندك، فكما أكرمتني سابقاً بالإجابة فلم أَكُنْ شقياً بدعائك، بل كنتُ سعيداً بالإجابة، فلا تُخلِف عادتك معي هذه المرة، واجعلني سعيداً بأنْ تُجيبني، خاصة وأن طلبي منك طاعة لك، فأنا لا أريد أن أخرج من الدنيا إلا وأنا مطمئن على مَنْ يحمل المنهج، ويقوم بهذه المهمة من بعدي.

فكانت رحمة اللَّه عبده زكريا في استجابة دعائه: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧].

وتوجيه الكلام إلى زكريا عليه السلام هكذا مباشرة دليلٌ على سرعة الاستجابة لدعائه، فجاءتْ الإجابة مباشِرة دون مُقدّمات، والحق سبحانه لم

يرزقه الابن فقط، بل وسماه له أيضاً باسم لم يسبقه إليه أحد (يحيى).

فلا يقنط أحد من رحمة اللَّه، يقول تعالى:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

إنه سبحانه يخلق ما يشاء، ويجعل مَنْ يشاء عقيماً، إنْ قالها الإنسان باستقبال مطمئن لقدر اللَّه، فاللَّه قد يَقَرّ عينه كما أقرَّ عيون الآخرين بالإناث أو الذكور، أو بالذكور والإناث معاً.

وأقسم لكم، لو أن إنساناً أو زوجيْن أخذا قَدَر اللَّه في العُقْم كما أخذاه في غيره من المواقف السابقة برضاً إلا رزقهم اللَّه، لا أقول ببنين وبنات يُرهقونهم في الحمل والتربية وغيرها، بل يرزقهم بأُناس يخدمونهم قد ربَّاهم غيرهم، والذي يجعل الأزواج المفتقدين للإنجاب يعيشون في ضيق هو أنهم في حياتهم ساخطون على قدر اللَّه والعياذ باللَّه فيجعل اللَّه حياتهم سُخْطاً.

بل إن النبوة والرسالة هما رحمة من اللَّه، يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(١) [الزخرف: ٣١، ٣٢].

الخير لا يخضع لرغبة الكافرين وأمانيهم، واللَّه يُنزِل الخير لمن يشاء، فالحقُّ سبحانه يعطي الرحمة لمَنْ يشاء؛ لكي يؤدي مهمته، أو يُنزِل رحمته على مَنْ يشاء، فليس لهؤلاء الكفار أنْ يتحكموا في مشيئة اللَّه، وحسدهم وكراهيتهم للمؤمنين لا تعطيهم حقَّ التحكم في رحمة اللَّه.

فرحمة اللَّه تعالى خاصة به، لا يقسمها إلا بمشيئته، يقسمها كيف يشاء، كما قَسَم بينهم معيشتهم، وأعطاهم الرزق المادي، وإذا كان المولى سبحانه قد قسم رزقهم في الأدنى، فكيف يريدون هم أنْ يتصرَّفوا في الأعلى؟

---

(١) القريتان هنا: مكة والطائف. واختلف العلماء في تحديد الرجل العظيم المقصود فمن مكة: الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة. ومن الطائف: عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل. قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٢٧): «الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أيّ البلدتين كان».

لذلك كان ردُّ الحق سبحانه عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢].

وفي هذا دعوة لأنْ يتأدَّبوا مع اللَّه سبحانه، فهو لم يُوكّلهم في اختيار مَنْ يُنزِل عليه رحمته ورسالته، ولكنه سبحانه هو الذي يختار، وهو الذي قَسَم بين العباد معيشتهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وإذا كان لأحد نعمة من مال أو جاه، أو مجد، أو غير ذلك، فهذا ليس من قدرات البشر أو من ذواتهم، ولكنه نعمة من اللَّه.

ويقول سبحانه عن لوط عليه السلام: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٥]، كيف؟ ألَسْنَا جميعاً في رحمة اللَّه؟ قالوا: لأن هناك رحمة عامة لجميع الخَلْق، تشمل حتى الكافر، وهناك رحمة خاصة تُعدي الرحمة منه إلى الغير وهذه يعنُون بها النبوة.

فمعنى ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ أي: في رَكْب النبوة، ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: للنبوة، واللَّه أعلم حيث يجعل رسالته، لكن قمة هذه الرحمة جاءت في النبي الخاتم والرسول الذي لا يُستدرك عليه برسول بعده؛ لذلك خاطبه ربه بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فالرسل قبل محمد ﷺ كانوا رحمة لأممهم، أما محمد فرحمة لجميع العالمين، ومعنى العالمين: كل ما سوى اللَّه عز وجل: عالم الملائكة، وعالم الجن، وعالم الإنس، وعالم الجماد، وعالم الحيوان، وعالم النبات.

لكن كيف تكون رسالة محمد ﷺ رحمة لهم جميعاً؟ قالوا: نعم، رحمة للملائكة، فجبريل عليه السلام كان يخشى العاقبة حتى نزل على محمد قوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]، فاطمأن جبريل عليه السلام وأَمِن.

ورسول اللَّه رحمة للجماد؛ لأنه أمرنا بإماطة الأذى عن الطريق، وهو رحمة بالحيوان.

وفي الحديث: «ما من مسلم يزرع زَرعاً، أو يغرس غَرْساً، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة، إلا كان له به صدقة»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠١٢)، وكذا مسلم في صحيحه (١٥٥٣) كتاب المساقاة من حديث أنس بن مالك رضي اللَّه عنه.

وحديث المرأة التي «دخلتْ النار في هِرَّة حبستها، فلا هي أطعمتها وسقتْها، ولا هي تركتْها تأكل من خشاش [١] الأرض»[٢].

وحديث الرجل الذي سقى كلباً كان يلهث يأكل الثَّرَى من شدة العطش، فنزل الرجلُ البئرَ وملأ خُفَّه فسقى الكلب، فشكر اللَّه له وغفر له؛ لأنه نزل البئر وليس معه إناء يملأ به الماء، فاحتال للأمر واجتهد ليسقي الكلب[٣].

وهكذا، نالت رحمةُ الإسلامِ الحيوانَ والطيرَ والإنسانَ، ففي الدين مبدأ ومنهج ينظم كل شيء، ولا يترك صغيرة ولا كبيرة في حياة الناس إلا ووضع لها منهجاً يصلح أمر البشر؛ لذلك فهو رحمة للعالمين.

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. يعني: أن كل ما يجيء به الإسلام داخلٌ في عناصر الرحمة.

(١) الخِشاش، بالكسر: الحشرات. قال أبو عبيد: يعني من هوام الأرض وحشراتها ودوابها وما أشبهها. [لسان العرب ـ مادة: خشش].

(٢) عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «دخلت امرأة النارَ في هِرّة، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض» أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣١٨)، وكذا مسلم في صحيحه (٢٢٤٢) كتاب البر والصلة.

(٣) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خُفّه ثم أمسكه بِفِيهِ فسقى الكلب فشكر اللَّه له فغفر له. قالوا: يا رسول اللَّه وإن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر». أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٠٩)، و أحمد في مسنده (٢/ ٣٧٥).